مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 14 / العدد: 01 (ماي 2026) ص 149– 177
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

إشكالية تأصيل مفهوم الخطاب في اللسانيات العربية والمقاربات الغربية
قراءة تحليلية من البنية إلى التداول

The Problematic of Establishing the Concept of Discourse in Arabic Linguistics and Western Approaches: An Analytical Reading from Structure to Pragmatics

رحمة بعزي
Rahma Bazi
جامعة يحي فارس – المدية (الجزائر) ، bazi.rahma@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2025/07/10	تاريخ القبول: 2026/04/20	تاريخ النشر: 2026/05/31

الملخص: يُعدّ مفهوم الخطاب من أكثر المفاهيم إشكالا في الدّراسات اللسانية والفكرية، نظرا لتعدّد تمثلاته وتداخله مع مفاهيم مجاورة خاصة "النص" وقد كشفت الدراسة بين التّصور العربي التقليدي والمقاربات التداولية الغربية، عن تباين جوهري في الأسس النظرية والمنهجية، إذ تمحور التصور العربي حول المعنى والسياق، مستندا إلى البلاغة والنحو، بينما اتّجهت اللسانيات الغربية إلى مقاربة الخطاب بوصفه فعلا تداوليا يُبنى ضمن وضعيات تلفظية محددة، هذا التّحول من البنية إلى الفعل، ومن الجملة إلى السياق أعاد تعريف الخطاب بوصفه ممارسة تواصلية مشروطة بالمقام والعلاقات الاجتماعية والمعرفية، ومن ثم فإن ضبط مفهوم الخطاب لا يكتمل إلا بتداخل الأبعاد اللغوية والتداولية والإيديولوجية في آن واحد.
كلمات مفتاحية: الخطاب، اللسانيات، التداولية، السياق، التواصل اللغوي.

Abstract

The concept of discourse is one of the most problematic in linguistic and intellectual studies due to its multiple representations and overlap with related concepts, especially "text." The study revealed a fundamental difference between the traditional Arab view, which centers on meaning and context based on rhetoric and grammar, and Western pragmatic approaches that treat discourse as a communicative act constructed within specific utterance situations. This shift from structure to action, and from sentence to context, redefined discourse as a communicative practice conditioned by situation, social relations, and knowledge. Thus, understanding discourse fully requires integrating linguistic, pragmatic, and ideological dimensions simultaneously.
Keywords: Discourse, Linguistics, Pragmatics, Context, Linguistic Communication.

المؤلف المرسل: رحمة بعزي ، **الإيميل**: bazi.rahma@univ-medea.dz

1. مقدمة

يُعدّ مفهوم الخطاب من أكثر المفاهيم إشكالا في الدّرس اللساني والفكري المعاصر، نظرا لما يطرحه من أسئلة معرفية ومنهجية حول طبيعته وحدوده ووظائفه، فالخطاب ليس مجرد بنية لغوية تُفهم في ذاتها بل هو فعل تواصلي يُنتج داخل سياقات مخصوصة، ويتفاعل مع عناصر المقام وحوامل الأيدولوجيا، وقد مرّ المفهوم بتحولات دلالية ومنهجية عميقة، انتقل فيها من التصورات البنوية التي حصرت فهمه ضمن نسق اللغة، إلى الرؤى التداولية التي وسعت أفقه لتجعل ممارسة اجتماعية وثقافية تتداخل فيها اللغة مع الفعل والمعرفة.

وانطلاقا من هذا الواقع المفاهيمي، تطرح هذه الدّراسة إشكالية مركزية تتمثل في: كيف يمكن تأصيل مفهوم الخطاب تأصيلا معرفيا ولسانيا، يُراعي تحوّله من البنية المغلقة إلى الفعل التواصلي؟ وهل يمكن ضبط مفهوم الخطاب ضمن تعريف موحد يراعي طبيعته المعقدة والمركبة؟

تنطلق هذه الدراسة من فرضيتين رئيستين: الأولى أنّ الخطاب لا يُختزل في وحدة لغوية محدَّدة، بل يُنظر إليه بوصفه فعلًا تواصليًا يتجاوز حدود البنية ليُدرج العوامل السياقية والمعرفية والإيديولوجية في إنتاج المعنى، أمّا الثانية فتقوم على استحالة ضبط تعريف واحد جامع للخطاب، بالنظر إلى تعدد مستوياته وتداخله مع مفاهيم مجاورة كالنص والتلفظ، وهو ما يقتضي اعتماد مقاربة تحليلية تستحضر أبعاده اللسانية والتداولية في آن واحد.

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف، أهمها: تفكيك الإشكال المفاهيمي لمصطلح الخطاب، وتتبع تطوراته عبر السياقات المختلفة، وإبراز التحولات المنهجية التي طرأت على دراسته، من التحليل البنوي إلى التداولي، والوقوف على طبيعته المركبة، بوصفه بنية دلالية وسياقية.

منهجيا، اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال مقاربة تجمع بين تحليل المفاهيم وتتبع تاريخ الأفكار، مع استنطاق المتون النظرية في المرجعيتين العربية والغربية، بغية رصد مفهوم الخطاب عبر مراحله المختلفة وتحولاته المفصلية.

2. الخطاب في الفكر العربي

لإدراك مدلول هذا المصطلح "الخطاب" في ثقافتنا العربية كان لابد أولا من الرجوع إلى تراثنا العربي، ولعلّ أول ما يساعدنا لبيان هذا المصطلح هو تتبع وروده في القرآن الكريم، والذي قد ذكره الله جل وعز ثلاث مرات بصيغة "اسم المصدر" في آيات متفرقات في سورتي "ص" و "النبأ"، حيث يقول الله تعالى:﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿20﴾ ﴾ سورة ص20، وتحمل لفظة الخطاب هنا معنى "التفضيل للكلام والمعاني"

(منير وليد، 2003، صفحة 29) ويقول في موضع آخر من السورة نفسها ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ ﴾ سورة ص23، وتحمل هذه الآية معنى "الجدال والحجاج" (منير وليد، 2003، صفحة 30) ويقول عز شأنه في آية أخرى ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧ ﴾ النبأ37، ودلالتها هنا عن "التوجه بالحديث" (منير وليد، 2003، صفحة 29) وذكرها الله سبحانه وتعالى أيضا بصيغة الفعل "خَاطب، تخاطبْني" مرات ثلاث، كما في قوله ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ ﴾ هود37، وقوله أيضا ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾ الفرقان63، كما وردت صيغ أخرى لنفس المادة "خ ط ب" تارة بلفظ "الخَطْب" و "الخِطْبة" في مواضع ست، ليكون حاصل ورود هذه المادة "خ ط ب" هو اثنتي عشرة مرة في إحدى عشر سورة (محمد فؤاد عبد الباقي، 1364، صفحة 235)

وأمّا لو عدنا للمعاجم العربية، فنجدها قد أشارت إلى الخطاب ضمن المادة المعجمية "خ ط ب" وقد نوّع اللغويون أصحاب المعاجم في دلالة الخطاب، فابن منظور (ت711ه) في اللسان يقول: والخِطابُ والمُخَاطبة: مُراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مُخَاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان [...] ورجل خطيب: حَسَن الخُطبة، وجمع الخطيب خُطباء، وخَطُب، بالضم، خَطَابة، بالفتح: صار خطيبا. (ابن منظور، د.ت، صفحة 361 ج1)

وفي معجم متن اللغة الحديث، ورد: خَطَب خَطَابة وخُطْبة على المنبر وعلى القوم: ألقى خُطبة [...] خاطَبه: واجهه بالكلام، وهما يتخاطبان [...] الخُطبة: الكلام الذي يلقيه الخطيب ج خُطَب [...] الخطيب: ذو الخطابة القدير على التكلم على المنابر ج خُطَباء، الخِطاب: مصدر خاطب، فصل الخطاب: الفصل بين الحق والباطل، أو الفقه في القضاء، أو كلمة أمّا بعد في الخطبة. (أحمد رضا، 1958، صفحة 296 ج2)

إن ما جاءت به هذ المعاجم من تعريفات تصبّ في مجملها على أن "الخطاب" يرتبط بالتواصل اللفظي المباشر والموجَّه، حيث يتمحور حول مواجهة الآخرين بالكلام لتحقيق غرض معين، سواء كان الخطاب خطبة على المنبر، أو محادثة بين شخصين، أو كلامًا يسعى لإيضاح الحق وإقناع الجمهور، فإن مفهوم الخطاب يتضمن الفصاحة والقدرة على إيصال الفكرة بوضوح وتأثير.

أما الكفوي (ت1094ه) فحد الخطاب حسبه كما قال: الخطاب اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه، احترز "باللفظ" عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة و"بالمتواضع عليه" عن الألفاظ

المهملة، و"بالمقصود به الإفهام" عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابا، وبقوله "لمن هو متهيء لفهمه" عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم، والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع وعلى مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إما الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام، وقد جرى الخلاف في كلام الله هل يسمى بالأزل خطابا قبل وجود المخاطبين تزيلا لما سيوجد منزلة الوجود أو لا؟ فمن قال: الخطاب هو الكلام لذي يقصد به الإفهام سمي الكلام في الأزل خطابا، لأنه يقصد به الإفهام في الجملة، ومن قال: هو الكلام الذي يقصد به إفهام من هو أهل للفهم على ما هو الأصل لا يسميه في الأزل خطابا [...] ومن يريد أن يأمر أو ينهى أو يخبر أو يستخبر أو ينادي يجد في نفسه قبل التلفظ معناها ثم يعبّر عنه بلفظ أو كتابة أو إشارة، وذلك هو الكلام النفسي (أبو البقاء الكفوي، 1998، صفحة 419)

إن ما طرحه "الكفوي" يُعد تأصيلا للخطاب بوصفه فعلًا كلاميًا إراديًا يتم بين طرفين: مُنتج الخطاب ومتلقيه، وهو فعل مشروط بقوانين لغوية متواضع عليها تهدف إلى تحقيق القصد الكلامي، فالخطاب في هذا الإطار يُعتبر عملية لغوية تواصلية تُودع فيها المعاني المقصودة من قِبل المُنتِج، لتُنجز في سياق زماني ومكاني مشترك يجمع الطرفين.

يتجاوز الخطاب في طبيعته البُعد اللغوي البحت، الذي يقتصر على مستوى الصوت، والتركيب، والدلالة، ليمتد إلى مجالات الأسلوبية والتداولية التي تُسهم في تحقيق الفعالية التواصلية بين المُتحدث والمُستمع، وفي هذا السياق، يذهب الكفوي إلى أبعد من مجرد وصف عملية التواصل، حيث يُبرز الآليات التي يتم بها إنجاز الخطاب، مُقسمًا إياه إلى مرحلتين أساسيتين:

- **الخطاب المتصوَّر**: ويُقصد به الكلام النفسي الذي يسبق الإنجاز اللغوي، وهو مرحلة الإعداد والتخطيط الذهني لما سيُقال.
- **الخطاب المنجَز**: ويُشير إلى الفعل اللغوي المُتحقق في الواقع من خلال التعبير الحسي المُنجز.

ويرى الكفوي أن الخطاب المتصوَّر قد لا يتطابق بالضرورة مع الخطاب المنجَز، مما يُشير إلى وعيه بمراحل إنتاج الخطاب بدءً من التفكير والتخطيط وانتهاءً بالإخراج الفعلي.

ويُلاحِظ أنه يضع حدودًا دقيقة لمفهوم الخطاب؛ إذ يستبعد منه كل وسائل التواصل غير اللفظية، مثل الإيماء والحركة والإشارة، باعتبارها غير داخلة في نطاق الألفاظ المخصوصة، كما يستثني الكلام المهمل الذي لا يُقصد به إفهام المتلقي، مؤكدًا أن جوهر الخطاب يتمثل في الألفاظ المُركبة وفق استعمال لغوي مُتفق عليه، بهدف تحقيق الإفهام المباشر دون الاعتماد على الإيحاء.

غير بعيد عن الكفوي نجد التهانوي يحد الخطاب بكونه: توجيه الكلام نحو الغير للإفهام (التهانوي، 1996، صفحة 749 ج1) قام باختصار جوهر عملية التخاطب، فهو يشير إلى عملية نقل الأفكار والمعاني من شخص إلى آخر مُستهدف أو مقصود بطريقة واضحة ومباشرة، بحيث يتمكن المستقبل من استيعاب المقصود بدقة، هذه العملية تتطلب أكثر من مجرد نطق الكلمات، بل تتضمن اختيار العبارات المناسبة، وتنظيم الأفكار بشكل منطقي، واستخدام أدوات لغوية وبلاغية تساعد على إيصال المعنى المراد، أي أنّه يعتد استراتيجية محكمة حتّى يصل إلى الغرض المنشود من إطلاق هذا الخطاب وهو "الفهم" هذا الأخير الذي لن يحدث محض صدفة أو عشوائية، بل يتحقق عن طريق آليات عقلية وذهنية تتيح له تحليل الرسالة الموجهة له، وربطها بمختلف السياقات النفسية والثقافية والاجتماعية المحيطة

فالخطاب ليس كلاما، إنّ للفظة كلام مجالا دلاليًا واسعا، أما لفظة خطاب فأضيق منها، فللكلام مدلولات لا دخل للخطاب فيها مثل قولهم "كلام العرب أو العجم" ومثل "الكلام المستغنى" الدال عند سيبويه على الجملة المفيدة، وقد يُطلقه المتكلمون على كلام" النفس"، ثم إن الكلام قد لا يكون موجها إلى مخاطب معيّن غير خيالي مثل ما يحصل في المنولوج وكلام النائم أو المجنون، أما الخطاب فلا يكون إلا في مخاطبة وهذا اللفظ نفسه مصدر خاطب فلا يتصور خطاب إلا في حال خطابية مع مخاطب معين. (الحاج صالح، د.ت، صفحة 15) وإلى الموقف نفسه يذهب طه عبد الرحمن التمييز بين "الكلام" و"الخطاب" من منظور فلسفي ولغوي، ويستعرض العلاقة بينهما ودلالاتهما في سياق التواصل، ليؤكد بادئ الأمر أن لفظة "الكلام" ترتبط بشكل وثيق بمعنى "التواصل" وأن جميع وسائل التواصل الأخرى، مثل الحركات والإشارات والرموز، تُفهم وفقًا لقوانين الكلام، مما يعكس أن الكلام هو الأساس في كل أشكال التواصل، فحقيقة الكلام لا تتعلق فقط بالنطق بألفاظ مرتبة، بل تتجاوز ذلك إلى وجود "قصدين أساسيين" أحدهما التوجه إلى الغير، وأما الآخر فإفهامه.

إذا ثبت أن كل ما يُنطق به يتوقف وصفه "بالكلام" إلا إذا اقترن بقصد مزدوج، يتمثل في إرادة المتحدث توجيه كلامه إلى الغير وإفهامه معنى معين، فإنه يتضح أن ما يصلح ليكون كلامًا هو ما يستوفي جميع الشروط اللازمة في حقّ ما يسمى خطابا، والذي يعرف بأنه "كل منطوق به موجّه إلى الغير لغرض إفهامه مقصودا مخصوصا"، وعليه إذن يتبين أن حقيقة الكلام ليست مجرد الدخول في علاقة بألفاظ معينة، بل تتعلق بالعلاقة مع الغير، بمعنى آخر، إن ما يحدد ماهية الكلام هو "العلاقة التخاطبية" وليس العلاقة اللفظية فقط، فلا يمكن اعتبار الكلام موجودًا من دون وجود تخاطب، ولا يمكن أن يكون هناك متكلم دون وجود مخاطِب، كما لا يوجد مستمع من دون وجود مخاطَب.

إذا كان التخاطب هو الأساس في عملية الكلام، فإن العلاقة التخاطبية تصبح العلاقة الجوهرية التي تقوم عليها سائر العلاقات الأخرى، ولا تكون تابعة لها، أي ينبني عليها غيرها ولا تُبنى على غيرها، وعليه إن احتوى الكلام على علاقة لفظية، يجب أن تكون هذه العلاقة في خدمة العلاقة التخاطبية وليست متقدمة عليها، وبهذا يتضح من أن اللفظ المستخدم في التخاطب لا يستمد دلالته من معناه الثابت في المعاجم، بل من قصد المتكلم عند النطق به، مما يدفع المستمع إلى تفسيره بحسب السياق التفاعلي، بدلاً من الاكتفاء بمعناه المعجمي الصارم. (طه عبد الرحمن، 1998، صفحة 213،215)

وللحميري رؤية أكثر عمقا، ففي ككتابه "ما الخطاب؟ وكيف نحلله؟" استهل مؤلفه هذا بمقاربة نظرية حاول خلالها تسليط الضوء على ماهية الخطاب الحقة، في سبيل الإجابة عن سؤاله المطروح "ما هو الخطاب؟" قائلا: يمكن النظر إلى الخطاب بوصفه "استراتيجية التلفظ" أو بوصفه نظاما مركّبا من عدد من الأنظمة التوجيهية والتركيبية والدّلالية والوظيفية "النفعية" التي تتوازى وتتقاطع جزئيا أو كليا في ما بينها (الحميري، 2009، صفحة 9) إنّ أوّل ما حكم عليه أنّ الخطاب هو "استراتيجية" بالتّالي فإنّ الأمر جلل، محمول محمل الجدة، ذلك أن الاستراتيجية خطّة في المقام الأول للوصول إلى الغرض المنشود وبما أنها كذلك، أي خطة، فهي ذات بعدين، أولهما: البعد التخطيطي، وهذا البعد يتحقق في المستوى الذهني، وثانيهما: البعد المادي الذي يجسد الاستراتيجية لتتبلور فيه فعلا، ويرتكز العمل في كلا البعدين على الفاعل الرئيس فهو الذي يحلل السياق، ويخطط لفعله، ليختار من الإمكانات ما يفي بما يريد فعله حقا، ويضمن له تحقيق أهدافه (بن ظافر الشهري، 2004، صفحة 53) وإن كان الخطاب "استراتيجية التلفظ" فهو يتضمن بعدين متكاملين للوصول إلى هدف التواصل، يبدأ البعد الأول في المستوى الذهني، حيث يحلل المتكلم السياق التواصلي، ويفكر في المتلقي ويفهم الظروف المحيطة ليحدد أنسب الكلمات والتعابير التي تحقق مقصده، بعد ذلك يأتي البعد المادي، حيث تتحول هذه الخطة الذهنية إلى فعل كلامي خطابي ملموس؛ أي أن المتكلم يختار الألفاظ ويستخدم نبرة الصوت والإشارات المناسبة لنقل المعنى بوضوح.

وفي كلا البعدين، يبقى المتكلم هو الفاعل الرئيس الذي يدير العملية، فهو من يقيّم كيفية توصيل المعنى، ويختار من الأدوات والوسائل التعبيرية ما يعزز وضوح مقصده، ويضمن وصول الرسالة على النحو الذي يحقق غايته الأسمى وهي الإفهام والإبلاغ، وبهذا تصبح عملية التلفظ استراتيجية واعية تجمع بين التخطيط النظري والتنفيذ العملي، ما يجعل التواصل فعّالًا وموجهًا نحو تحقيق الغرض المقصود.

الخطاب "نظام مركب من الأنظمة التوجيهية والتركيبية والدلالية والوظيفية" يشير إلى لغوية الخطاب الذي لن تقوم له قائمة إلاّ بمستويات اللغة الأساسية المتعاضدة، إضافة إلى المستوى السياقي أو المقامي، إذن يمكن تحليل هذه الأنظمة كما يلي:

- **الأنظمة التوجيهية:** تقوم أساسا على المخَاطَب، حيث ترتبط بكيفية توجيه المُخاطِب خطابه إلى المتلقي، تتعلق هذه الأنظمة بتحديد من هو الموجه إليه الخطاب، فيتطلب ذلك فهمًا دقيقًا لخصائص المُخَاطَب، مثل خلفيته الثقافية والاجتماعية، مما يساعد المخاطِب على اختيار الأسلوب المناسب للعملية التخاطبية.
- **الأنظمة التركيبية:** تتعلق بالجانب البنوي الداخلي للخطاب، حيث تُنظم التراكيب والجمل بطريقة معينة تؤدي إلى انسجام الأسلوب وتناسقه، يعتمد هذا الانسجام على مجموعة من القواعد التي تحدد كيفية تفاعل العناصر اللغوية، مما يسهل فهم المعاني المقصودة ويعزز فعالية التواصل، تلعب هذه الأنظمة دورًا حيويًا في توضيح المعاني وتوليدها، ما يجعل من الخطاب أكثر إقناعا وإفهاما وبلاغا.
- **الأنظمة الدلالية:** تعمل على إغناء الخطاب عبر بناء معانٍ متعددة مختلفة عن طريق عديد الاستراتيجيات والأساليب الكلامية المختلفة، لتخدم أهداف التواصل، فهي تجعل من الخطاب عمليةً دلاليةً تتجاوز البنية الظاهرية للغة، وتتيح للمخاطِب إيصال أفكار أخرى، وتحقيق استجابات عاطفية ومعرفية في المخاطَب.
- **الأنظمة الوظيفية** "**النفعية**": ترتبط بالأغراض التي يقوم عليها الخطاب كالإقناع والتأثير والإبلاغ والتحفيز والتعليم ...إلخ، والأهداف التي يسعى لتحقيقها على مستوى عملي، وهي وقعها على نفس المخَاطب موقعا حسنا باستقباله الخطاب فهما واستيعابا، وعليه فإن فاعلية الخطاب تُقاس بناءً على قدرته على تحقيق هذه الأغراض من خلال الأساليب اللغوية والبلاغية.

وبناءً على هذا التحليل، يمكن القول إن هذه الأنظمة الأربع ليست مستقلة عن بعضها البعض، بل تتداخل وتتكامل بحيث تسهم كل واحدة منها في بناء الخطاب من وجهة معينة، ما يجعل الخطاب ككل "نظامًا مركبًا" كل نظام يلعب دورًا في تحديد كيفية توجيه الرسالة، وكيفية ترتيبها، وما تعنيه الكلمات داخل هذا السياق، وكيف تحقق الوظائف الاجتماعية والنفعية من وراء ذلك.

ويزيدنا الحميري في المفهوم دقة قائلا: وإذا صح النظر إلى الخطاب بوصفه "استراتيجية التلفظ" أو بأنه نظام مركب من عدد من الأنظمة التوجيهية والتركيبية والدلالية، والوظيفية بالمعنى السابق – فهذا يعني أنه يصح النظر إلى الخطاب بوصفه "برنامج التلفظ" الذي نخضع لنظامه خلال عملية التلفّظ، ونخرج أو نتمرد على نظامه

في الوقت نفسه، إنّه نظام القول أو الفعل "ودوافعهما" الذي يسكن وعينا ويكيف سلوكنا، أو لنقل: إنّه النظام/البرنامج الذي يصوغ وعينا، ويوجه إرادتنا وسلوكنا التواصلي.

وهذا يقتضي أنه "الخطاب" عبارة عمّا نعبر عنه بلغة القول أو الفعل، وبصورة مباشرة "الخطاب المباشر" أو غير مباشرة "الخطاب غير المباشر" أو هو بتعبير آخر: نظام العقل الذي نعقل من خلاله الأشياء، ونتصرف إزاءها بمقتضاه، إنه نظام الوعي الواعي بنفسه، وبما هو وعي به، وبما هو وعي فيه، وله أو لأجله (الحميري، 2009، الصفحات 11-12)

ينتقل في وصفه الخطاب من كونه "نظام" إلى "برنامج" هذه النقلة من النظام إلى البرنامج توحي إلى العوالم الذهنية الداخلية المرتبطة بالوعي والإدراك في ذهن الإنسان.

فإذا كان الخطاب "نظاما": فهو يمثل مجموعة من العناصر والعلاقات التفاعلية التي تتضمن قواعد تنظيمية (التوجيه، التركيب، الدلالة، والوظيفة) التي تساهم في تحديد الطريقة التي يُعبَّر بها عن الأفكار ويتفاعل من خلالها المتكلم والمستمع، في هذا الإطار، يُعتبر الخطاب نظامًا شاملاً يدمج بين المكونات الدلالية والوظيفية والتوجيهية بطريقة متكاملة، تعمل على بناء نسق تخاطبي تواصلي متكامل؛ حيث ينتمي الخطاب إلى شبكة معقدة من القيم والمعايير التي تجعل التواصل هادفًا وتُعطيه معناه.

وأمّا إذا كان الخطاب "برنامجا": فسينظر إليه على أنه سلسلة من الخطوات الموجهة لتحقيق هدف تواصلي محدد، فحين يُطبّق الفرد استراتيجية خطابية، فإنه يتبع "برنامجًا للتلفظ" قائمًا على وعي مسبق بالغرض المطلوب، حيث يحلل السياق وينتقي الأدوات التعبيرية بعناية، ليحقق هدفه التواصلي بنجاح، هنا، يصبح الخطاب أداة ديناميكية مرنة، يوجهها المتكلم عبر "برنامج" تواصلي يُكيفه بحسب الظروف، ويمنحه القدرة على اختيار أسلوب التواصل الأمثل، بل وحرية التمرد على بعض القواعد الخطابية إذا دعت الحاجة.

الخطاب، بصفته "نظام القول أو الفعل ودوافعهما"، يعني أن عملية التلفظ تتجاوز مجرد الأقوال والأفعال إلى تضمين الدوافع التي تحركها، فيسكن وعينا ويؤثر على سلوكنا، هذا النظام، أو البرنامج، يصوغ وعينا ويوجه إرادتنا التفاعلية، ما يجعل الخطاب أداة تشكل كيفية فهمنا وتواصلنا مع الآخرين، بتأثيره على مستويات التفكير والتنفيذ، يتيح لنا الخطاب التصرف والتواصل بوعي، وفق أهداف ودوافع محددة، مما يجعله جزءًا أساسيًا في تشكيل التجربة الإنسانية والتفاعل الاجتماعي.

فالخطاب الذي يعدّ أساسا عبارة عن منظومة لغوية، يشكل جوهر العقل البشري الذي من خلاله يعقل الأشياء ويميزها ويحللها ويفسرها، وهذه العمليات المعرفية لا تتحقق إلاّ عن طريق اللغة، فهي الدّافع الأول للحركة والديناميكية والتجديد في هذا العالم، وبدونها حتما يختل توازن الكون أجمع.

نختتم ترسانة التعريفات بما جاء به أحمد المتوكّل الذي عرّف الخطاب من منطلق النحو الوظيفي قائلا إنه: أي إنتاج لغوي منظور إليه في علاقته بظروفه المقامية وبالوظيفة التواصلية التي يؤديها في هذه الظروف بهذا المعنى يمكن أن نعدّ خطابا مجموعة من الجمل أو جملة أو جزء من جملة، أما حين يتعلق الأمر بالنحو الوظيفي فإن هذا المفهوم يصدق عامة على ما يجاوز الجملة الواحدة [...] الخطاب في النحو الوظيفي هو كل مجموعة من الجمل يتم بها التواصل بين مستعملي اللغة (المتوكل، 2001، الصفحات 17-18) موقفه هذا يركز على الوظيفة التواصلية للخطاب التي يؤديها في سياق معين، يتماشى تماماً مع أهداف نظرية النحو الوظيفي، فكلا المقاربتين تسعيان إلى فهم اللغة كأداة للتواصل البشري في مواقف حقيقية، وبالتالي فإن الخطاب، بوصفه وحدة تحليلية، يمثل نقطة التقاء هامة بين النظرية والتطبيق، نظرية تطمح إلى الربط بين بنية اللسان الطبيعي ووظيفته الأساسية، وظيفة إتاحة التواصل داخل المجتمعات البشرية، فكان من الطبيعي أن تتخذ موضوعاً لها لا الجملة الواحدة بل الخطاب، أي النص مؤطراً بظروف إنتاجه (المتوكل، 2001، صفحة 15)

مبدئيا وبناءً على ما تقدم يمكن القول إن الخطاب ليس مجرد كلمات منطوقة أو مكتوبة تُنقل بين طرفين، بل هو منظومة تواصلية شاملة تتجاوز حدود اللغة لتشمل العوامل الاجتماعية والتاريخية والثقافية وحتى النفسية التي تحيط به، فالخطاب يتشكل من تفاعل بين مخاطِب ومخاطَب في سياق اجتماعي معين، مما يمنحه بُعدًا حيويًا وتكامليًا يمزج بين التعبير اللغوي والتفاعل الخارجي، ويعتمد نجاح الخطاب على مدى اتساقه مع السياق وملاءمته لاحتياجات المتلقي، ما يجعل من الخطاب كيانًا ديناميكيًا يُعبر عن دواخل الفرد ويتأثر بالبيئة المحيطة، ليصبح أداة فعالة في التواصل الإنساني تتفاعل فيها مختلف الأبعاد النظرية والتطبيقية.

2. الخطاب في الفكر الغربي

للخطاب في الثقافة الغربية أيضا أصل لغوي تاريخي انطلق منه حتّى استقر لسانيا كما نعهده في محور الدّراسة اللسانية الحديثة.

يعود جذره الأوّل إلى الثقافة الإغريقية، وهو ما نجده عند أرسطو في إطلاقه مصطلح اللوغوس Logos والذي وضعه ضمن تقسيمه لمشروعه البلاغي إلى ثلاث مستويات حجاجية تقوم عليها البلاغة أو الحجاج، وهي "الإيتوس والباتوس واللوغوس" في علاقتها بالأبعاد الثلاثة للفعل الخطابي "الخطيب والمستمع والخطاب، "فاللوغوس

هو الخطاب وما ينبني عليه من حجج وأدلة، والتي من واجبها التأثير في المخاطَب أو المتلقي، بعبارة أخرى هو الحجاج المنطقي، المرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال والبناء الحجاجي (طروس، 2005م، صفحة 18)

لغويا أيضا، ما ذكرته الموسوعة العالمية التي نجد فيها ربطا بين الكلمة الإنجليزية Discours والكلمة اللاتينية Discursus التي كانت تعني "جرى هنا وهناك" هذه الكلمة مأخوذة من الفعل اللاتيني Discurrere إذا سلّمنا بهذا الربط يمكن وصف الخطاب بأنه "جري" من متكلّم إلى سامع أو قارئ، تقدم الموسوعة تفسيرا يركز على هذا الجذر، مفاده أن الخطاب هو كل ما ينطلق من ملكة الكلام بمعنى قال وتكلم، يتضمن هذا التحديد [...] "إجراء التلفظ" الذي عبره يحقق المتكلم اللغة في الكلام، لذلك نلاحظ هذا الانتقال من معنى "جرى هنا وهناك" إلى معنى "تكلّم طويلا" وهذا المعنى قريب إلى المعنى الذي نجده في قاموس كولان الإنجليزي الذي يعرف الخطاب بأنه "تواصل كلامي، سواء كان حديثا أو حوارا.

ويربط "قاموس أكسفورد" الخطاب بحقل تحليل الخطاب الذي هو: طريقة في تحليل النصوص أو الأشكال التلفظية الأكبر من الجملة، أخذا بعين الاعتبار محتواها اللغوي وسياقها السوسيو – لغوي".

في اتجاه آخر يبحث دوزا وآخرون في تاريخ استعمال الكلمة الانجليزية discours فيرجعها إلى سنة 1534 [...] ويشير إلى أنها كانت تستعمل في بداية تداولها بمعنى "محكي" أو "عرض" سواء كان منطوقا أو مكتوبا، غير أن استعمال هذه الكلمة قد تشعب ليشمل دلالات متعددة نجدها مثبتة في روبير الصغير كالآتي:1- حوار أو محادثة. 2- خطبة شفوية أمام جمع من الناس 3- كتابة أدبية تعالج موضوعا بطريقة منهجية 4 – التعبير الشفوي عن الفكر [...] 5 – الكلام وقد يعني ملفوظا لغويا قابلا [...].

تتقاطع هذه المعاني مع ما ورد في قاموس ليتري الذي أجمل ثمانية معان لكلمة خطاب هي 1 الحوار أو المحادثة 2 – كل تركيب منطوق 3- فن القول 4- متوالية من الكلمات والمركبات المعبرة عن الأفكار. 5- خطبة تتناول موضوعا بطريقة محددة وبطول محدد 6- محكي أو قصة 7- خطاب مرتجل 8 خطاب يعرض وجهة نظر.

أما معجم دوبوا فيذكر أربعة معاني لمفهوم الخطاب نوردها كالآتي: 1- الخطاب هو ممارسة للغة 2 – الخطاب وحدة توازي الجملة أو تفوقها، إنه يتكون من متوالية تشكل خطابا له بداية ونهاية وهو بهذا المعنى مرادف للفظ 3 – في البلاغة يعد الخطاب متوالية شفوية موجهة للإقناع والتأثير 4 – في اللسانيات يعد الخطاب لفظا يفوق الجملة منظورا إليها من حيث قواعد تسلسل الجمل (العربي، 2010م، الصفحات 33-34)

لسانيا: قبل الوصول إلى وضع تعريف للخطاب والذي لم يحظ لحد الآن بتعريف أحادي يتلف حوله الدارسون، وجب معرفة موقعه ضمن الأرضية اللسانية، فلقد بات واضحا ومن البديهي أنّ الخطاب مكوّن لساني،

أخذت في تداوله الدّراسات اللسانية الحديثة منذ العقود الأخيرة من القرن العشرين، فغدا من المصطلحات اللسانية المتوارث من اتّجاه لآخر وبمقاربات مختلفة، ما جعله مفهوما مائعا متعدّد الدّلالات.

إن تتبع تطور بحوث علوم اللغة منذ ستينيات القرن الماضي يكشف لنا عن ظهور مجال جديد للدراسة ألا وهو "دراسة الخطاب" هذا المجال الجديد، الذي يركز على دراسة اللغة في سياقها الطبيعي، قد أوجد علاقة معقدة مع اللسانيات التقليدية التي تهتم بدراسة البنية اللغوية المجردة، فدراسة الخطاب تسعى إلى فهم اللغة ليس فقط من خلال قواعدها النحوية والصرفية، بل أيضًا من خلال دورها في التواصل والتفاعل الاجتماعيين، وبالتالي فإن دراسة الخطاب تمثل محاولة لتوسيع نطاق دراسة اللغة لتشمل جوانب جديدة ومتنوعة، مما أدى إلى إعادة النظر في الكثير من المفاهيم والنظريات اللغوية التقليدية.

إنّ الجذور اللسانية الأولى للخطاب تضرب في عمقها ومصدرها الأوّل إلى "دي سوسير" عندما ميّز بين "اللغة والكلام"، ولو لم يصرّح علنا بمصطلح "الخطاب"

- فاللغة: نظام اجتماعي ثابت ونتاج جماعي يسهل التواصل، تتسم بالتكرار والاستقرار، مما يجعلها ماضوية وسلطوية.
- أما الكلام: فهو تعبير فردي حر نابع من وعي وإرادة الشخص، يستخدم فيه أساليب تعبيرية تعكس فكره الشخصي ويعتمد على آليات نفسية وفيزيائية.

وعندما وضح طريقة تشكّل الكلام انطلاقا من "الدائرة الكلامية" التي تتطلب وجود شخصين على الأقل لتبادل الحديث، تبدأ العملية في دماغ المتحدث (أ)، حيث ترتبط التصورات أو التمثيلات العقلية بصور سمعية محددة، وهذه "عملية نفسية" بعدها يُصدر الدماغ إشارات إلى أعضاء النطق لتحفيز الذبذبات التي تتشكل منها الموجات الصوتية، والتي تنتقل من فم المتحدث (أ) إلى أذن المستمع (ب). عندئذٍ، يتلقى المستمع (ب) الموجات الصوتية، وتنتقل الصورة السمعية في اتجاه معاكس من الأذن إلى دماغه، ليكمل الدائرة عندما يتحول المستمع إلى متحدث.
فالعملية الكلامية حسبه تتكون من:

- عناصر خارجية: تشمل الاهتزازات الصوتية المنتقلة بين الفم والأذن، وعناصر داخلية تضم باقي الأجزاء.
- عناصر نفسية: تتعلق بالعمليات الفيزيولوجية في الأعضاء، وأخرى غير نفسية تشمل الوقائع الفيزيائية خارج الفرد.
- عناصر فاعلة: تبدأ من مركز الدماغ لدى أحد المتحاورين وتصل إلى أذن الآخر، وعناصر منفعلة تبدأ من الأذن وتنتقل إلى مركز الدماغ.

بهذه الالتفاتة الدّقيقة في التمييز بين اللغة والكلام، إلاّ أنه ركّز على اللغة لثباتها، مهملا الكلام لفردانيته وعدم ثبوته، **وهنا يكمن المنعطف الحاسم في بروز الخطاب ضمن الأرضية اللسانية**، فما كان هامشيا لدى دي سوسير أصبح عند المتأخرين موضوعا للدراسة مستبدلين "الكلام" بترسانة مصطلحية متنوعة كالرّسالة والنص والأسلوب والخطاب، فنتج عن هذا التّحول تقليص أهمية اللغة، ليحل محلها عبقرية الكلام، الذي يُعتبر سلوكًا حيًا متمردًا يعمل ضد السلطة والجمود، **فالكلام هو تواصل لفظي ينتقل من مخاطب إلى آخر**، ليصبح خطابًا (discours) وهو سمة يتم اكتسابها من خلال عملية التخاطب، لأن الكلام أو الخطاب، لا يتشكل إلا بين الأفراد أثناء تفاعلهم وتواصلهم (بوحوش، 2009م، صفحة 84،87)

إلى جانب ثنائية "اللغة والكلام" ميّز دي سوسير أيضا مفهوم "اللسان" فحسبه: هو النظام اللغوي المجرد والمستقر الذي يتقاسمه أفراد مجتمع لغوي معين، إنه بمثابة القاموس والقواعد النحوية التي يتعلمها الفرد ويتقاسمها مع الآخرين، فهو البنية الأساسية التي تقوم عليها جميع الأفعال اللغوية، ولا يرتبط بشخص معين، بل هو ملكية جماعية للمجتمع اللغوي.

فلئن انطلق سوسير من اللسان ليحد الكلام، فإنّ "غاردنر" اتخذ الاتجاه المعاكس فانطلق من الخطاب ليصف اللسان، فالخطاب عنده نشاط إنساني يتواصل بواسطته متكلّم ما مع مخاطَب، مستعملا إشارات لفظية منظمة حسب شفرة مشتركة، أما اللسان فهو تحديدا مجموع المعارف التي تتعلق بهذه الشفرة وبهذه الإشارات وتسمح بالتواصل، والجملة حسب "غاردنر" هي وحدة الخطاب أما الكلمة فهي وحدة اللسان وينبغي التمييز بين هذين المستويين تمييزا لطيفا حتى إن اختزلت الجملة في كلمة مفردة [...] وعلى خلاف سوسير، الذي يستخدم التمييز بين اللسان والكلام ليخرج الكلام من حقل دراسة اللغة، يضع "غاردنر" الخطاب أصلا للسان، فاللسان هو ببساطة، نتيجة استعمالات خطابية لا حصر لها، ومن هذه الزاوية، ينبغي أن يدرس الخطاب كما يدرس اللسان (جاك موشلر وآن ريبول، 2010م، صفحة 51) ليصل إلى تعريف الخطاب بأنه: الاستعمال بين الناس لعلامات صوتية مركّبة لتبليغ رغباتهم وآرائهم في الأشياء (باتريك شارودو ودومنيك منغنو، 2008، الصفحات 180-181)

في حين أنّ أوّل من أشار صراحة إلى مصطلح "الخطاب" هو اللساني الأمريكي "زيلغ هاريس" وذلك عندما نشر بحثا بعنوان "تحليل الخطاب discourse analysis" عام 1952م، قدم فيه رؤية مغايرة تمامًا للممارسات اللسانية السائدة آنذاك محاولا توسيع دائرة البحث اللساني، دعا هاريس إلى تجاوز حدود الجملة المنفردة التي كانت محور الاهتمام التقليدي، مشيرًا إلى ضرورة دراسة سلسلة مترابطة من الجمل، ووفقًا لهذا التصور، يُعرَّف الخطاب على أنه تسلسل من الجمل المترابطة بقواعد محددة، ولتوضيح هذه الفكرة، قام هاريس بتحليل نص

إشهاري باستخدام المقاربات النحوية الأمريكية، وخلص إلى أن الخطاب يظهر ككلية ثقافية متماسكة، وأشار إلى أن اللسانيات، التي ركزت سابقًا على تحليل الوحدات الجملية بمعزل عن غيرها انطلاقًا من منظور شكلي بحت، أغفلت بشكل كبير مسألة "المعنى"، وهي عنصر أساسي يشترك بدرجة ما في تشكيل الخطابات (بن مالك، 2021م، صفحة 15)

باعتبار هاريس توزيعياً، فقد اعتمد في دراسته الخطاب نفس التصور والأدوات التي استخدمها لتحليل الجملة، وركّز اهتمامه على قضيتين رئيسيتين: الأولى تتمثل في توسيع نطاق الوصف اللساني ليشمل ما يتجاوز حدود الجملة، وهي قضية لسانية بحتة؛ أما الثانية فتتعلق بالعلاقات بين اللغة والثقافة والمجتمع، وهي قضية خارج لسانية لم يمنحها اهتماماً يُذكر، ضمن هذا الإطار اللساني المحض، عرّف هاريس الخطاب "سلسلة متتابعة من الجمل" وعليه طوّر منهجه التوزيعي لتطبيقه على الخطاب، حيث تُظهر العناصر أو متتالياتها انتظاما غير اعتباطي في الخطاب، وتُعبّر هذه التوزيعات عن نظام محدد يُبرز بنية النص، والتي تتحدد من خلال مفهوم "التوازي equivalence" عبر البحث عن طبقات التوازي بين مختلف عناصر الخطاب، مثل الجمل أو المورفيمات، يقوم هاريس بضبط بنية الخطاب عبر تمثيلها في لوحة ذات محورين: المحور الأفقي يُبرز العلاقات بين طبقات التوازي داخل الجملة الواحدة، في حين يُظهر المحور العمودي ترتيب الجمل كما وردت في الخطاب، مما يكشف عن انتظام الخطاب وبنيته العامة (يقطين، تحليل الخطاب الروائي، 1997م، صفحة 17)

إذن فمفهوم الخطاب عند هاريس هو: ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض (يقطين، تحليل الخطاب الروائي، 1997م، صفحة 17)

انطلاقا من مفهوم هاريس للخطاب الذي يعتبره رهينا بمجموعة مرتبطة ومتراصة من الجمل التي تقدّم في الأخير خطابا ملفوظا منطوقا، أدّى تصوّره هذا إلى ظهور موقف آخر للباحث الفرنسي "إيميل بنفنست" الذي يرى أنّ الجملة هي الحدّ الأدنى الذي يمكن دراسته داخل الخطاب، ولا يمكن اختزاله إلى شيء أصغر من الجملة دون فقدان المعنى، فبمجرّد النظر إلى الجملة داخل سياق الخطاب فإننا نخرج من مجال اللسانيات الشكلية التي تركز على القواعد، وندخل إلى مجال آخر يُستخدم فيه اللسان كأداة للتواصل، ما يجعل التركيز منصبا على وظيفة اللغة واستخدامها لإيصال المعنى ضمن سياق تواصلي حقيقي.

فينتقل الخطاب مع "بنفنست" متجاوزا "الملفوظ" إلى "التلفظ" فيعرفه قائلا إنه: كلّ تلفّظ يفترض متكلّما ومستمعا، وعند الأول هدف التّأثير على الثّاني بطريقة ما (يقطين، تحليل الخطاب الروائي، 1997م، صفحة 19) ما يؤكّد على دراسة الكلام ضمن أرضية تواصلية خصبة.

يُعتبر مفهوم "التلفظ Enonciation" الفعل الذاتي في استخدام اللغة، مما يسمح بدراسة الكلام في إطار نظرية التواصل ووظائف اللغة، حيث يُصبح هو موضوع الدراسة الأساسي وليس الملفوظ، وبالتالي، لا يُعتبر الملفوظ خطابًا إلا إذا استوفى شروط التخاطب ذات البعد التفاعلي والتواصلي، في هذا السياق تتشكل الحلقة التواصلية من أربعة عناصر" الباث، والمتلقّي، والملفوظ، وإرادة التأثير على المتلقي" بهدف تغيير قناعاته واعتقاداته، مما يؤدي إلى تغيير واقعه، كما يمكن استنباط عناصر ضمنية في هذه الحلقة، "كالرسالة المشحونة بالبلاغ والشفرة المتعارف عليها لفك الرموز غير الواضحة"، يمكن رصد هذا النظام التلفظي في عدة جوانب:

- أولاً، تتمظهر اللغة في القول الذي يشير إلى موقف معين، حيث لا يكون الكلام إلا متوجها إلى شيء ما.
- ثانيًا، من حيث الشكل، تتكون اللغة من وحدات مستقلة تمثل كل منها علامة.
- ثالثًا، تُنتج اللغة وتُستقبل بناءً على قيم إحالية مشتركة بين أفراد المجتمع.
- رابعًا، تمثل اللغة الوسيلة الوحيدة لتحقيق التواصل البينذاتي (Intersubjective).

وبناءً على ذلك، فإن ربط الملفوظ بالخطاب يتطلب وضع مجموعة من القواعد التي تسهّل التعبير بالكلام، حيث يُعتبر الملفوظ جزءًا لا يتجزأ من الخطاب ويشكل ركنًا أساسيًا فيه، بوصفه وحدة لسانية تواصلية دينامية ذات خصائص نحوية ودلالية. لذا لا يمكن للملفوظ أن يحدد الخطاب بمفرده، بل يجب أن يُضاف إليه سياق التواصل لكي يصبح خطابًا كاملًا (واضح، 2012، الصفحات 19-20)

أمّا فان دايك في مؤلّفه "النّص والسياق" الذي خصّه لدراسة لسانية سياقية للخطاب، بناء على نقده لنحو الجملة التي تركز على المتتاليات المتسلسلة فقط، سعى فيه لتقديم الخطاب عبر مستويين كبيرين، هما "المستوى الدلالي ثم التداولي"، مبررا اختياره واعتماده هاتين الدعامتين، وذلك في تقديمه للكتاب مشيرا إلى أن الدراسات الحديثة في اللسانيات، وخاصة في علم اللسان الاجتماعي والعلوم الإنسانية، تصب جلّ اهتمامها بالسياق بمختلف أنواعه. وقد تجددت الجهود لتحديد العلاقات بين السياقات الثقافية والاجتماعية وبنيات اللغات ووظائفها، توضح فلسفة اللغة أن السياق التداولي يشكل الشروط المحددة للتعبير عن المعاني في اللغة الطبيعية، حيث يمكن إعادة صياغة التلفظات اللغوية من خلال تحليلها كمتواليات جملية تأخذ بعين الاعتبار الخصائص الصرفية والفونولوجية والتركيبية والدلالية، كما تم التأكيد على أهمية دراسة هذه المتواليات في سياقاتها الشفوية، حيث تُعتبر جزءًا من

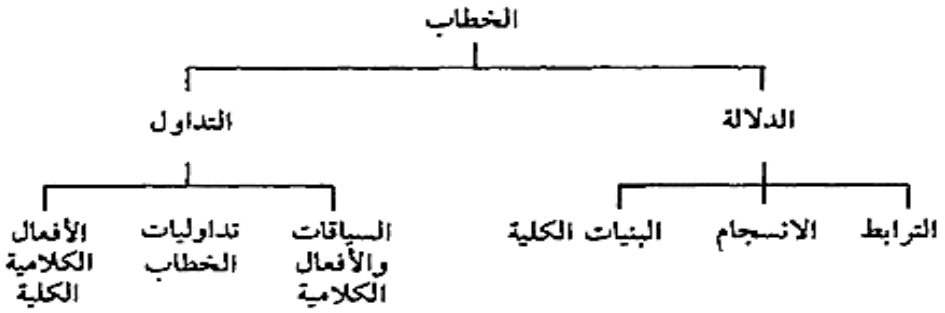
الخطاب الذي يتم تحليله وفقًا لمفاهيم نحو النص، بينما تُعالج بنيات أخرى للخطاب في مجالات مثل علم النفس المعرفي والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع.

فيهدف هذا الكتاب إلى تقديم مساهمة في دراسة الخطاب اللساني، حيث تم التركيز على مفاهيم محددة تتعلق بنظرية الخطاب مثل الترابط والاتساق وموقع الخطاب، بالإضافة إلى العلاقات بين السيمانطيقا والتداولية التي لم تحظَ بالاهتمام الكافي في الأبحاث الحديثة حول نحو النص، فهو يسعى إلى تقديم معالجة أكثر وضوحًا ومنهجية، مركزا على مفاهيم مثل الترابط، الاتساق، محل الخطاب، والعلاقة بين السيمانطيقا والتداولية، متجنبًا التوسع في قضايا مثل التسوير، الضمائر، والاقتضاء التي تناولتها أبحاث أخرى.

بدلًا من محاولة صياغة إطار شامل لنحو الخطاب، يتناول المؤلف بعض المفاهيم النظرية بشكل معمق، مع تركيز خاص على العلاقة بين الجملة الفردية ومتوالية الجمل، وهي مسألة يراها جوهرية لفهم السيمانطيقا والتداولية، وإن تحليل الخطاب كمتوالية من الجمل يستلزم الاعتماد على نظرية تداولية محكمة، لأن هذا الوصف يتطلب تفيرًا دقيقًا لشروط تسلسل أفعال الكلام في الخطاب.

يقسم محتوى مؤلفه إلى دعامتين رئيسيتين، هما:

- السيمانطيقا أو الدلالة: يناقش شروط الترابط بين القضايا، والاتساق على مستوى المتواليات والبنيات الكبرى.
- التداولية: يعيد تناول هذه الظواهر من خلال أفعال الكلام ومتوالياتها.



بذلك فهو يهدف إلى تقديم مدخل شامل لنظرية نحو النص وعرض أهم المشكلات الأساسية المرتبطة بها، مع افتراض معرفة أولية باللسانيات الحديثة ونظرية أفعال الكلام، كما يعتمد أسلوبًا بسيطًا ومباشرًا لتوضيح المفاهيم، مع الاعتراف بأن العديد من النقاط المطروحة هي تأملات مبدئية تتطلب مزيدًا من الدراسة المعمقة في المستقبل.

في حديثه عن ضروب السياق وأفعال الكلام، يشير إلى المهام الرئيسية للتداولية في صياغة شروط نجاح إنجاز العبارات، حيث يُعتبر الإنجاز الفعلي للفعل الكلامي عنصراً حاسماً في تحديد مدى قبوله أو رفضه من قبل المتلقين، يتطلب ذلك تحديد المبادئ التي يجب أن تستوفيها أفعال الكلام لتحقيق النجاح، بالإضافة إلى توضيح كيفية ارتباط شروط العبارة كفعل إنجازي مع بنية الخطاب.

يرى فان ديك أن السياق عنصر ديناميكي في التواصل، يتضمن سلسلة من الأحداث المتغيرة التي تربط المتكلم بالمخاطب ضمن إطار زمني ومكاني محدد، يتطلب كل موقف تواصلي وجود شخصين على الأقل ينتميان إلى جماعة لسانية مشتركة، حيث ينتج المتكلم عبارات إنجازية تؤدي معاني محددة، ويستقبلها المخاطب ضمن شروط تضمن نجاح العملية التواصلية، يتميز السياق الواقعي بتوفر عناصر مثل الزمن "الآن" والمكان "هنا"، ويتطور عبر مسارات تتضمن حالة ابتدائية وأخرى نهائية، بالإضافة إلى ذلك، يحتوي السياق على بدائل محتملة قد تكون مألوفة أو غير معتادة، مما يعكس تنوع الأحداث ويبرز أهمية السياق في تحديد طبيعة التفاعل وأهدافه.

وحين انتقل إلى "الأفعال اللغوية" بوصفها عملية معقدة تتجاوز النطق أو الكتابة إلى تحقيق أفعال اجتماعية ذات مغزى، يميز بين عدة مستويات للأفعال اللغوية، مثل الفعل الكلامي الأصلي "النطق أو الكتابة" والفعل الإنجازي "القائم على القصد والغرض" وقوة فعل الكلام "التأثير الاجتماعي" ولازم فعل الكلام "الأثر الناتج" فيشير بذلك إلى أن كل مستوى من مستويات الفعل اللغوي يعتمد على الآخر، حيث تُبنى الأفعال البسيطة "مثل النطق" لتكون أساسًا للأفعال الأكثر تعقيدًا "مثل الصرف والنحو" والتي تُترجم في النهاية إلى خطاب ذي معنى.

كما يوضح أن تحقيق الأفعال اللغوية لا يتم بشكل عشوائي، بل يعتمد على تخطيط واعٍ يأخذ في الاعتبار نية المتحدث وسياق التفاعل. يصف فان دايك العلاقة بين المستويات الدنيا "مثل النطق" والمستويات العليا "مثل القصد والمعنى الاجتماعي" حيث تكون المستويات العليا هي التي توجه الأفعال الأدنى لتحقيق الهدف الاجتماعي للخطاب (فان دايك، د.ت، صفحة 27،45)

لنخلص إلى مفهوم الخطاب عند فان دايك والذي جاء به عند تمييزه بين "النص والخطاب" وهذا الأخير حسبه هو: فعل الإنتاج اللفظي، ونتيجته الملموسة، والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، وبتعبير آخر، إن الخطاب هو الموضوع الأمبريقي والمجسد أمامنا كفعل، أما النص فهو الموضوع المجرد والمفترض، إنه نتاج لغتنا العلمية (يقطين، انفتاح النص الروائي النص والسياق، 2001م، صفحة 16)

وعندما يتعلّق الأمر بقضية التّواصل فنجد أن الباحثين سعوا إلى فهم كيفية حدوث فعل التواصل وتحديد الاستراتيجيات التي يستخدمها المرسل لتحقيق الاتصال الفعّال مع الآخرين، كما درسوا العوامل التي تؤثر في اختيار هذه الاستراتيجيات وتأثير النظام اللغوي المستعمل في تشكيل الخطاب التواصلي، فبذلك يعتبر التواصل نشاطًا اجتماعيًا يتم بين طرفين أو أكثر، وهو منظم حسب مقتضيات اللغة المستخدمة، بهدف تنسيق العلاقات الاجتماعية، يتميز التواصل بعدة خصائص أساسية:

- **التشاركية:** يعد التواصل نشاطًا مشتركًا يتيح للأفراد تأسيس أو الحفاظ على علاقاتهم. يشمل هذا الاشتراك في المكان والزمان، وكذلك في المعتقدات والعلاقات السابقة بين الأطراف، بالإضافة إلى الهدف الذي يسير عليه الخطاب.
- **اللغة والرموز:** يتم التواصل إما باللغة الطبيعية أو باستخدام علامات سيميائية أخرى.
- **التخطيط والهدف:** لا يعد التواصل فعلًا عشوائيًا أو غفلا، بل هو فعل مخطط له، موجه لتحقيق أهداف محددة مثل إقامة العلاقات، التبليغ، والإقناع.
- **الأعراف الاجتماعية:** يتم التواصل وفقًا للأعراف الاجتماعية التي قد تختلف من شخص لآخر.

الهدف من هذا الاتجاه هو رصد خصائص بنية اللغة الطبيعية وربطها بوظائفها في التواصل، وقد توصل الباحثون إلى أن قدرة طرفي التواصل تكمن في معرفة القواعد العامة التي تمكّنهما من تحقيق أهداف التواصل وتأويل الخطاب، بما في ذلك القواعد اللغوية على مستوياتها التركيبية والدلالية والصوتية (بن ظافر الشهري، 2004، صفحة 10)

كما سعى "جاك موشلر" إلى إقامة تحليل تداولي للخطاب، وذلك بعد رصده لمجالات قامت بتحليل الخطاب، لخصها في ثلاث توجهات كبرى، وهي (يقطين، تحليل الخطاب الروائي، 1997م، الصفحات 24-25):

- **الاتجاه الفرنسي:** ركز على دراسة الجوانب التي تقع "خارج اللسانيات التقليدية" بمعناها السوسيري، أي تلك التي لا تنحصر في القواعد البنيوية للغة فقط، شمل هذا الاتجاه تحليل **آثار الكلام** "التأثيرات الناتجة عن استخدام اللغة" و**الآثار السياقية** "ارتباط الخطاب بسياقه الاجتماعي والثقافي" و**الأيديولوجية** "انعكاس الأفكار والمعتقدات في الخطاب" اعتمد هذا النوع من التحليل على أدوات مثل **المقاربات المعجمية** "دراسة المفردات ودلالاتها" و**الدلالية** "تحليل المعاني" بالإضافة إلى التركيز على **التأويل الاجتماعي والسياسي للخطاب**، مما يكشف عن الأبعاد الأعمق للرسائل التي يحملها النص.

- **الاتجاه التوليدي:** يسعى إلى إقامة "نحو للخطاب" على غرار نحو الجملة، يتعارض مع تحليل الجملة ويركز على بناء قواعد خاصة بالخطاب.
- **الاتّجاه الأنجلو-ساكسوني "مدرسة بيرمنكام":** يركز على تحليل الحوار، خاصة في بيئات تعليمية مثل التفاعل بين المعلم والتلاميذ، ويهتم بتحديد العلاقات والوظائف للوحدات الحوارية.

بعد عرضه لهذه الاتجاهات الثلاث، ينحاز إلى الاتجاه الأنجلو-ساكسوني، محددًا الخطاب كحوار، **معتقدا أن التحليل التداولي للخطاب ينبغي أن يرتكز على "التداولية اللسانية:** لفهم طبيعة التفاعل الخطابي، و**نظرية البرهان:** لتحليل الأسس الحجاجية في الخطاب"

وكافتخار بصنيع التداوليين لما جاءوا به، يؤكد عدد من مؤسسي "التداولية" الأوائل وأبرز روادها المعاصرين على تميز منهجهم بخصائص فريدة لا تتوفر لدى غيرهم من اللسانيين، حيث يسعون إلى تمييز رؤيتهم عن الاتجاهات البنيوية التي تنمّط الإنسان المتكلم وتقلل من قدراته الإبداعية ضمن إطار دراسي ثابت يُعرف بـ "النظام" لذا، يصفون **منهجهم التداولي بأنه "الإنتاجية الصورية للمعنى"** التي تمنع تشبيه المتحدث بالآلة، كرد على كيفية تعامل البنوية مع المتكلم كآلة مبرمجة، لذلك اهتم الباحثون في مجال التداولية بـ"الكلام" وسياقات استعماله المختلفة، بالإضافة إلى "مقاصد" المتحدثين، وقد نشأت المقاربة التداولية في سياق مرحلي متتابع، حيث بدأت باكتشاف "أفعال الكلام" كنظرية تأسيسية للتواصل، ثم انتقلت إلى فهم الخيوط الرئيسية للظاهرة اللغوية في شكل "خطاب". واعتُبر الخطاب أرقى شكل للتواصل والإبلاغ، مما يعكس أهمية السياق في تحديد معاني الكلام وكيفية تأثيره على الفهم والتفاعل بين المتحدثين والمستمعين (صحراوي، 2004م، الصفحات 53-54).

وهكذا، رغم تنوع التعاريف واختلافها فيما يتعلق بمفهوم الخطاب، إلا أنها تلتقي عند مبدأ مشترك يجمع بينها وهو على نحو ما يؤكد عليه الباحث "Grawtiz" أن كل الجهود تنطلق من مبدأ مؤداه أن كل الملفوظات لا تظهر بوصفها جملا أو متتاليات من الجمل، بل بوصفها نصوصا، وخارج كل نص نصادف صيغة تنظيم من نوع خاص، إذ يتعين علينا من خلالها معالجة هذا النص بربطه مع جملة الشروط التي تم فيها إنتاجه، وعليه فأي تصور يأخذ في الحسبان بنية النص في رحاب شروط إنتاجه هو معاينة للنص بوصفه خطابا (بلقندوز، 2009م، صفحة 82) الملفوظات لا تُعتبر مجرد جمل أو تسلسلات لغوية منفصلة، بل تُفهم كنصوص متكاملة تتمتع ببنية خاصة تُظهر انتظامًا داخليًا مميزًا، يتطلب فهم هذه النصوص النظر في السياقات التي أُنتجت فيها، حيث يعتمد ذلك على الربط بين بنيتها وشروط إنتاجها، بما في ذلك الظروف الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي ساهمت في تشكيلها، ومن هنا يصبح أي تحليل يأخذ بعين الاعتبار هذه العلاقة العضوية بين بنية النص وسياقه دراسة للنص

كخطاب، حيث يتجاوز ذلك مستوى التركيب اللغوي ليشمل تحليل الأبعاد التداولية التي تُبرز الغايات من إنتاج النص وطبيعته التواصلية، إن دراسة النصوص بصفة خطاب تتطلب أدوات تحليلية تأخذ في الاعتبار كل هذه العوامل، مما يتيح فهمًا أعمق للمعاني والدلالات الكامنة وراء الكلمات.

إن الخطاب، كما تتفق عليه مجمل التعريفات، يمثل وحدة لغوية تتجاوز حدود الجملة، إذ يتكون من مجموعة مترابطة من الجمل، تُنظم وفق نسق مخصوص يعكس تماسكه وبنيته، ويرتبط التركيز على الجانب اللفظي للخطاب بتوجه اللسانيين نحو دراسة الكلام باعتباره مظهرًا فرديًا للغة، بوصفها نظامًا معياريًا عامًا، هذا التصور يقتضي بالضرورة استحضار بعض مكونات نظرية الاتصال، مثل المرسل والمتلقي، باعتبارهما قطبي عملية التواصل: الإرسال والاستقبال.

ويُعدّ الخطاب ظاهرة لغوية تتسع دلالاتها لتشمل مجالات معرفية متعددة، فهو ليس موضوعًا لعلم اللسانيات وحده، بل تتقاطع معه نظرية الاتصال، السيميولوجيا، ونظرية التلقي، مما يُبرز المستويات المتعددة التي ينطوي عليها تحليل الخطاب، تبعًا للزاوية التي يُدرس منها.

كما يمتاز بكونه إنتاجًا فرديًا يهدف إلى الإفهام والتأثير؛ فهو عملية تواصلية يقصد من خلالها المتكلم إيصال رسالة محددة المعنى والغاية إلى المتلقي، ويتطلب ذلك من المتلقي استيعاب مقاصد المتكلم من خلال فك شفرة الرسالة وفهم دلالاتها في إطار السياق التداولي الذي يحيط بالخطاب.

كما لم يعد الخطاب يُفهم بوصفه مجرد سلسلة من الجمل المتتالية كما كان يُنظر إليه في الدراسات اللسانية التقليدية، بل تطور مفهومه ليشمل أشكالًا متعددة من التعبير الإشاري، سواء أكانت لفظية أم غير لفظية، مثل الإيماءات، الصور، وقد امتد البحث في الخطاب ليشمل مجالات متنوعة، كالأدب بشقيه الشعري والسردي، والفنون التشكيلية، والسينما، والتصوير الفوتوغرافي، بل حتى الموسيقى والرقص، ونتيجة لهذا التوسع، ظهرت نظرية الخطابات التي تسعى إلى دراسة الأنواع المختلفة للخطاب، وخصائصها البنوية، وعلاقاتها ضمن الجنس الواحد أو بين أجناس متعددة.

يمكن التمييز داخل كل خطاب بين مستويين:

- **دال اللسان:** وهو الإمكانيات التعبيرية والأسلوبية التي توفرها اللغة، ويُعبّر عن "القدرة الخطابية".
- **دال الخطاب:** وهو الفعل اللغوي المنجز فعليًا، ويُعرف بـ"الإنجاز".

يُبنى الخطاب على علاقة بين الدال والمدلول، أي بين الشكل اللغوي والمعنى الذي يحمله، ولا يمكن تأويله إلا ضمن بنيته الخاصة، ورغم اعتماده على الإمكانيات اللغوية المتاحة، إلا أن منتج الخطاب يوظفها بطريقة إبداعية من خلال الأسلوب، فالأسلوب في جوهره، انزياح عن المألوف واستكشاف لإمكانات جديدة في التعبير، مما يجعله عملية ابتكارية تتجاوز الاستخدام العادي للغة.

وبناءً على ذلك، يُفهم **الخطاب بوصفه لغة حية تُحقق التواصل بين متكلم ومستمع في إطار زماني ومكاني محدد.** وبهذا يختلف عن النص الذي يتسم بالثبات والاكتمال البنوي، في حين يتميز الخطاب بالدينامية والحركية لارتباطه بالسياق التداولي وبتفاعل أطراف العملية التواصلية.

ومنه يتبين أن دراسة الخطاب تتطلب تحليلًا شاملًا لعناصره، بدءًا من السياق والمقاصد والأفعال الكلامية، وصولًا إلى العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وهو ما يجعل الخطاب موضوعًا متعدد الأبعاد، تتداخل في دراسته علوم اللغة، التداولية، نظرية الاتصال، والحقول المعرفية الأخرى التي تُعنى بفهم الظاهرة التواصلية في أبعادها المختلفة (إيكر، 2012م، صفحة 90،92)

3. مساءلة مفهومية منهجية في تمييز الخطاب عن النص

أصبحت مسألة تحديد الفوارق بين النص والخطاب ضرورة ملحة، خاصة في ظل الاهتمام المتزايد الذي توليه اللسانيات لمجريات التواصل وتجسيدها ضمن نظرياتها، فمع تطور الدراسات اللسانية بات من الواضح أن فهم العلاقة بين النص والخطاب يساهم بشكل كبير في توضيح كيفية إنتاج المعاني وتبادلها بين الأفراد، وقد انقسم أصحاب الدراسات اللسانية إلى فئات متناقضة، يتنازعون الاستعمال الواعي لهذين المصطلحين، فبرزت مواقفهم على النحو التالي:

- **الرؤية التكاملية:** ترى أن النص يمثل الشكل الظاهري أو البنية السطحية للعمل الأدبي، بينما يعبر الخطاب عن مضمونه العميق أو البنية العميقة.
- **رؤية العموم والخصوص:** تقوم على مقارنة الصفات المشتركة والمختلفة بين النص والخطاب، حيث يرتبط الخطاب بالجانب التركيبي "عملية الإنتاج" بينما يُنسب النص إلى الكتابة "عملية التلقي" وبالتالي، تتعلق خصوصية الخطاب بالإنتاج وخصوصية النص بالتلقي.
- **الرؤية الكتابية:** تميز بين النص والخطاب بناءً على مظهرهما الكتابي، فالنص يُعنى بالكتابة، بينما الخطاب يُعنى باللغة الشفوية مثال على ذلك بول ريكور، الذي يرى النص خطابًا تم تثبيته بالكتابة.

- **رؤية التداخل:** تعتمد على التداخل والخصائص المشتركة بين النص والخطاب، إذ يعتبر النص المظهر المرئي أو المادي، بينما الخطاب هو السياق التداولي للنص وفعل إنتاجه، من أبرز ممثلي هذا الاتجاه فان ديك الذي يُعرّف الخطاب على أنه السياق التداولي للنص ونتاج الفعل اللفظي الذي يُجسد النص في شكله الملموس (واضح، 2012، الصفحات 26-27)

يوضح "بشير إبرير" مجموعة من الفروق الجوهرية بين النص والخطاب، حيث يبين أن الخطاب يعتمد على وجود "متلقٍ مباشر" أثناء حدوثه، مما يجعله نشاطًا تواصليًا يعتمد على "اللغة الشفوية" في المقابل، النص يتوجه إلى "متلقٍ مؤجل" يصل إليه عن طريق القراءة ويعتمد على "الكتابة".

من الفروقات الأساسية التي رصدها، ما يلي:

- **التلقي والزمن:** الخطاب موجه لمتلقٍ حاضر لحظة إنتاجه، مما يعني أنه يرتبط باللحظة الزمنية التي يحدث فيها، أمّا النص فبفضل طبيعته الكتابية، يمتلك خاصيةً تتيح قراءته في أي زمان ومكان.
- **الوسيلة التعبيرية:** الخطاب يُنتج عبر القناة النطقية "المشافهة" مما يجعله محدودًا بزمان ومكان إنتاجه، أما النص فيعتمد على نظام خطي كتابي يمنحه صفة الاستمرارية في الزمان والمكان.
- **المرجعية:** الخطاب مقيد بمرجعية القناة الشفوية، أي المشافهة بين المتحدث والمستمع، ووجوده مرتبط بتلك اللحظة فقط، أما النص يتميز بمرجعية كتابية توفر له ديمومة مادية تجعله متاحًا لقراءة متكررة (واضح، 2012، صفحة 93)

تُبرز هذه الفروقات أن الخاصية الأبرز للنص هي "المظهر المادي الكتابي" الذي يمنحه استمرارية تفوق الخطاب الشفهي، بينما يبقى الخطاب مرتبطًا بتفاعل مباشر بين المتكلم والمخاطب في اللحظة الزمنية التي يحدث فيها.

ورد التمييز بين الخطاب والنص في معجم تحليل الخطاب على أنّ الخطاب يُتَصوَّر باعتباره إقحاما لنص في مقامه "ظروف إنتاجه وتقبله" (باتريك شارودو ودومنيك منغنو، 2008، صفحة 181)

يقدم فان ديك تمييزًا دقيقًا بين النص والخطاب، حيث يرى أن النص يمثل "بنية عميقة" ذات طابع تجريدي، بينما يمثل الخطاب "بنية سطحية" تتجسد في ملفوظ لغوي، وفقًا لهذا التصور يُعتبر النص وحدة مجردة لا تتخذ شكلاً ملموسًا إلا عبر الخطاب الذي يُجسده كفعل تواصلي، ما يجعل العلاقة بين النص والخطاب متشابكة من خلال ارتباط النص بسياقه التداولي (العموش، 2008، صفحة 24)

يتعامل "مايكل ستابز" مع إشكالية الخطاب والنص باعتبارهما مترادفين، ولكنه ينوه إلى أنّ النص قد يكون مكتوبا في بعض الاستخدامات، في حين أن الخطاب شفاهي، وقد يكون النص غير تفاعلي بينما الخطاب تفاعلي، قد يكون النص قصيرا أو طويلا، أما الخطاب فيدل على طول مؤكّد، ولا بدّ للنص أن يتسم بتماسك سطحي، في حين لابد للخطاب أن يتيمز بتماسك أعمق (ميلز، 2016، صفحة 16) يتميز بنوع من الدقة هذا الطرح، فهو يعتبر النص غالبًا ما يكون ثابتًا ومكتوبًا، بينما الخطاب يمكن أن يكون شفاهيًا وتفاعليًا، النص قد يكون غير تفاعلي، بينما الخطاب يتميز بالتفاعل بين المتحدث والمستمع، مما يعني أن الخطاب يعتمد على ردود الفعل الفورية من الجمهور، بينما النص يمكن أن يُقرأ في وقت لاحق، بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون النص قصيرًا أو طويلًا، لكن الخطاب غالبًا ما يُفهم على أنه يمتد لفترة أطول ويشمل تفاعلات متعددة نتيجة الأخذ وارد والتبادلات الخطابية، من ناحية أخرى، يُشترط أن يكون للنص تماسك سطحي، بينما يتطلب الخطاب تماسكًا أعمق، فالتماسك السطحي للنص يعتمد على الروابط اللغوية التي تربط بين الجمل والفقرات، مما يسهل على القارئ فهم العلاقات الداخلية، في المقابل، يتطلب الخطاب تماسكًا أعمق، حيث يجب أن يتجاوز الروابط اللغوية ليشمل فهم السياقات الاجتماعية والثقافية والعوامل النفسية التي تؤثر على كيفية تفسير المعنى، وبالتالي، يمكن القول إن النص يحتاج إلى تماسك سطحي ليكون واضحًا ومفهومًا، بينما يتطلب الخطاب تماسكًا أعمق لفهم المعاني والسياقات المرتبطة به بشكل شامل.

سعيد يقطين: يرى أن النص أكثر شمولًا من الخطاب، مستندًا في تمييزه بينهما إلى عدة أسس:

- **المرجعية النظرية:** اعتمد على "البويطيقا" كنظرية عامة تعنى بالخطاب الأدبي، ما أتاح له تصورًا أكثر شمولًا للنص باعتباره إطارًا يضم الخطاب ضمن سياق أدبي أوسع.
- **التأثر بالبنوية:** تأثر يقطين بالروح البنوية التي ظهرت في الأدبيات الغربية، وتعامل مع إنجازاتها كتمثيل لتحول نوعي في التفكير والنظرية الأدبية، وقد وظف هذه الإنجازات لتأسيس رؤية متجددة في تمييز النص عن الخطاب.
- **الربط بين الخطاب والنص:** لجأ في تحليله إلى ربط الخطاب بالمظهر النحوي، بينما اعتبر النص أكثر اتساعًا، إذ يرتبط بالبنية الدلالية، وقد أسس هذا التمييز على قناعته بأن التحليل لا يمكن أن يقتصر على الوصف "الخطاب" بل يجب أن يتجاوز ذلك إلى التفسير "النص".

يرى يقطين أن النص هو مصدر الدلالة وأساسها، ما يستدعي الاهتمام به لا كمجرد شكل أو بنية سطحية بل كبنية عميقة تتيح استكشاف الجوانب التالية: تجاوز العلاقة التقليدية بين الراوي والمروي له إلى استحضار

الكاتب والقارئ، والانتقال من تحليل البنيات السردية إلى استكشاف البنيات الدلالية، والتركيز على التحولات من صيغ الخطاب إلى بنيات النص الأكثر ثباتًا وشمولية (يقطين، من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، 2005، الصفحات 116-117)

أحمد المتوكّل: يرى أن الخطاب هو نص مؤطر بظروف إنتاجه، إلاّ أن "الخطاب" ضمن "أدبيات النحو الوظيفي" هو الشائع والمفضل على منافسه "النص" يوضح السبب قائلا: ولعل السبب في هذا التفضيل هو أن مصطلح "الخطاب" يوحي أكثر من مصطلح "النص" بأن المقصود ليس مجرّد سلسلة من لفظية "عبارة أو مجموعة من العبارات" تحكمها قوانين الاتّساق الداخلي "الصوتية والتركيبية والدلالية الصِّرف" بل كلّ إنتاج لغوي يُرْبَط فيه ربط تبعية بين بنيته الدّاخلية وظروفه المقامية "بالمعنى الواسع".

[...] بنية الخطاب ليست متعالقة والظروف المقامية التي يُنتج فيها فحسب، بل إنّ تحديدها لا يمكن أن يتم إلاّ وفقا لهذه الظروف، ربط التبعية بتعبير آخر يعني أن لبنية الخطاب علاقة بوظيفته بل إنّها خاضعة لهذه الوظيفة، على اعتبار أن وظيفة الخطاب الأساسية التي تتفرع عنها باقي الوظائف الممكنة هي وظيفة التواصل [...] الخطاب حسب هذا التقريب العام هو، إذن، كلّ تعبير لغوي أيا كان حجمه أُنتِج في مقام معين قصد القيام بغرض تواصلي معين، إلاّ أن اتجاه النحو الوظيفي "ولعله اتجاه عام" حسب ما يمكن استجلاؤه من أدبيات هذا النحو، هو استعمال مصطلح "الخطاب" للإحالة على كلّ كل ما يتعدى الجملة الواحدة (المتوكل، 2001، الصفحات 16-17) يعكس هذا الاتجاه الوظيفي أهمية السياقات الاجتماعية والتفاعلية في تشكيل المعنى، حيث يُعتبر الخطاب أكثر حيوية من النص المكتوب، الذي يفتقر إلى تلك السياقات الحية، وبالتالي يُظهر التحليل اللغوي الحديث كيف أن الخطاب يعكس تفاعلًا مباشرًا بين المتحدث والمستمع، مما يجعله وحدة تحليلية أساسية في الدراسات اللغوية.

إذن نختتم عنصر جدلية النّص والخطاب بموقف "**الدكتور محمد محمد يونس علي**" الذي يجمع فيه بين المنطق وأصول الفقه والدلالة والبراغماتية، حتى يخرج بتمييز دقيق بين "النص والخطاب"، فيرى:

انطلاقا من كون مادة النص هو تعبير عن درجة من درجات الوضوح، وهو الكلام القطعي الذي لا يحتمل معنى آخر، وليس معناه "القطعة من الكلام" بل الصفة التي تعكس نسبة الوضوح دون احتمال أي تأويل، بناء على هذا يعرفه بأنه ما يكتبه المتكلم إن كان كتابة أو ما ينطقه صراحة قبل أن تنظم إليه القرائن العقلية والخارجية.
أمّا الخطاب فهو ما ينتج عن ضم كلام المتكلم إلى ما يناسبه من القرائن المحتكة به مع مراعاة مبادئ التخاطب وعلاقات اللزوم، وهو ما ينشأ عن تقصيد قول المتكلم المكتوب أو المنطوق لذلك فهو يستدعي مخاطَبا.

يضرب لذلك مثلا "قول طالب لأستاذه: الجو بارد يا أستاذ"

نصا: يخبرنا بأن الجو بارد، خطابا: يقصد إغلاق المكيف، ما الذي أوصلنا لهذا الاستنتاج؟

قمنا بجمع نص المتكلم "الجو بارد" مع مجموع القضايا الخارجية المحيطة بالنص، من بينها، القاعة تحتوي على مكيف والمكيف مفتوح، ونضم معها أيضا القضايا الذهنية الصامتة، فالإنسان يحمل في ذهنه ملايين القضايا "جمل، اعتقادات معارف، أفكار..." وهذه هي التي تتحكم في القصود، ما يعني أن المتكلم يصدر مثيرا فقط، وهذا المثير يستنطق ما هو موجود في المقام التخاطبي وما هو موجود في ذهن المخاطَب، والقضايا الذهنية الموجودة في هذا المثال هي: أن الهواء البارد يسبب شعورا مزعجا، ويؤدّي إلى المرض.

إذن، النص "الجو بارد" جمعت معه القرائن الموجودة في المقام وفي ذهن المخاطَب، لتصل بنا في النهاية إلى القصد وهو "إغلاق المكيف"، وقس على ذلك، ما يجل دائما **النص واحد والخطابات مختلفة** (محمد يونس علي، 2024)

يرى الباحث أن القول اللغوي ليس سوى أداة ضمن أدوات متعددة يستخدمها المخاطَب لفهم قصد المخاطِب، مشيرًا إلى أن المقامات التخاطبية وأذهان المتخاطبين تُضمر قضايا غير مُصرَّح بها، تُستنبَط من خلال الكلمات، موضحا بذلك أن العلامات اللغوية تتغير مع الاستعمال، لتصبح أدلة مرنة تتشكل وفق السياق، مؤكدًا أن القول اللغوي ليس الدليل الوحيد لفهم القصد، بل هو جزء من منظومة أدلة تكشف عن ذلك القصد، وأن العلاقة بين دلالة القول ومبدأ المناسبة تتجلى في تأثير المثير الإدراكي على إدراك القصد، كما أشار إلى أن المقامات التخاطبية تحوي قضايا صامتة يثيرها النص ويحوّلها من الوجود بالقوة إلى الوجود الفعلي، موضحًا دور المعرفة المشتركة والخبرة السابقة في تفعيل هذه القضايا، وأضاف أن النص لا يقتصر على التصريح، بل يشمل استلزامات تُستنتج دون ذكر صريح، معددًا أنواعها كالافتراض، والإيحاء، والقياس، والتأليف، والاستبدال، والاستدلال، وأوضح الفرق بين النصية والمقاصدية في قراءة النص، حيث تركز النصية على المعنى الحرفي، بينما تهتم المقاصدية بفهم قصد المتكلم، وأكد أن فهم الخطاب يتطلب تجاوز النصوص إلى القرائن والمبادئ التخاطبية، مع دور محوري للاستلزامات في نقل المعنى.

مهما تعدّدت الاختلافات وتباينت المواقف بين "النص والخطاب" إلاّ أنهما يلتقيان ويشتركان ضمن خاصية واحدة متأصلة في جوهرهما وهي "الكلامية" بمعناها الدقيق، والتي تقابل "اللسان واللغة"، ويتميز الخطاب بكونه في أصله منطوقًا يمكن نقله إلى الكتابة، بينما النص أصله مكتوب ويمكن تحويله إلى منطوق، كما أن النص أعم من الخطاب في توجّهه إلى مخاطَب، سواء كان ظاهرًا "كما في استخدام ضمير المخاطب وأسماء الإشارة" مغيبًا

"بضمير الغائب" أو معدوم التمظهر اللغوي "كما في الخواطر والأشعار" وحتى في هذه الحالة يكون المخاطب موجودًا ضمنيًا ولكن دون تمثيل لغوي مباشر له في النص.

يمكن القول الآن إن الخطاب هو منطوق يحمل معنى، صادر من ذات عاقلة، موجهٌ قصد تبليغه ذاتا عاقلة أخرى لغرض التأثير والإقناع، ضمن لحظة آنية، تجتمع فيها مبادئ التبليغ والتلقي "الذهنية، والسياقية الخارجية"، وإن قُيّد كتابة ورمزا فقد انتقل من الخطاب إلى النص.

قام "شارودو ومانغنو" في معجمهما بإحصاء دقيق لخصائص الخطاب التي تميّزه عن مختلف النتاجات اللسانية، وهي كما يلي (باتريك شارودو ودومنيك منغنو، 2008، صفحة 182، 184):

- **الخطاب موجّه:** يُعتبر "موجّهًا" لأنه لا يقتصر على هدف المتكلم فقط، بل يتطور عبر الزمن ويأخذ منحنيات مختلفة بناءً على الظروف المتغيرة. قد ينحرف عن مساره ثم يعود إليه أو يتغير استجابة لردود فعل المخاطب، وهذا يظهر من خلال الاستباقات أو الرجوع إلى الوراء في الخطاب، مثل "سنرى أن..." "أو بالأحرى..."، في الملفوظ الأحادي "مثل الكتاب" يتحكم المتكلم في توجيه الخطاب من البداية إلى النهاية، بينما في الملفوظ الحواري، يمكن للمخاطب مقاطعة أو تغيير اتجاه الكلام في أي لحظة، في التفاعل الشفوي، تتغير الكلمات باستمرار مما يتطلب متابعة دقيقة وفقًا لتفاعل الآخر.
- **الخطاب شكل من أشكال الفعل:** الخطاب يُعتبر نوعًا من الأفعال، حيث أن كل ملفوظ، كما ذكر فلاسفة مثل ج. ل. أوستين (1962) وج. ر. سيرل (1969)، هو في الحقيقة فعل يهدف إلى تغيير حالة معينة مثل: الوعد أو السؤال أو التأكيد، هذه الأفعال اللغوية الأولية تتداخل مع أنواع أخرى من الأفعال اللغوية التي تُستخدم في سياقات محددة، مثل كتابة مقال أو وصفة طبية أو نشرة أخبار، وهذه الأنشطة اللغوية ترتبط أيضًا بأنشطة غير كلامية، مثل تطبيق الوصفة الطبية أو تقديم تقرير في نشرة الأخبار.
- **الخطاب متفاعل:** التفاعل في الخطاب يتجلى بوضوح في **المحادثات**، حيث ينسق المتكلمان بين ملفوظاتهما، ويتكيف كل منهما مع موقف الآخر، ويلاحظ تأثير كلامه في الآخر بشكل مباشر، ولكن لا يقتصر كل خطاب على التفاعل المباشر كما في المحادثات؛ فهناك أشكال أخرى من الخطاب، مثل المحاضرات أو البرامج الإذاعية، التي قد لا تبدو "متفاعلة" في هذه الحالة، يرى بعض الباحثين أن التبادل الشفوي يُعتبر الاستخدام "الأصيل" للخطاب، بينما تكون أشكال التلفظ الأخرى أقل تفاعلية، ومع ذلك، من المهم التمييز بين التفاعلية الأساسية للخطاب والتفاعلية الشفوية، فكل تلفظ، حتى في غياب مخاطب مباشر، ينطوي على تفاعل ضمني مع متكلمين آخرين، سواء كانوا افتراضيين أو حقيقيين، في

هذا السياق، لا يُعتبر التحادث هو الشكل الأمثل للخطاب، بل هو أحد أشكال تجلّي التفاعلية الأساسية للخطاب، رغم أنه يعد الأكثر وضوحًا وأهمية.

- **الخطاب مظروف بمقامه:** يعني أن الخطاب لا يمكن فصله عن السياق أو البيئة التي يتم فيها، المقام ليس مجرد إطار خارجي يحيط بالخطاب، بل هو جزء أساسي من تحديد معناه، فلا يمكن فهم الخطاب بشكل صحيح دون أخذ المقام بعين الاعتبار، علاوة على ذلك، لا يقتصر المقام على تحديد الخطاب فحسب، بل يمكن أن يساهم الخطاب نفسه في تحديد المقام أو تغييره أثناء تقديمه، بمعنى آخر الخطاب والمقام يتفاعلان معًا، حيث يساهم كل منهما في تشكيل الآخر.

- **الخطاب مُتَكفَّل به:** الخطاب لا يكون ذا معنى إلا إذا كان مرتبطًا بمصدر محدد يتخذ مواقف معينة من حيث الزمان والمكان، ويحدد موقفه تجاه ما يُقال والمخاطب، المتكلم في هذا السياق هو الذي يحدد هذه التحديدات ويختار كيفية تقديم المعلومات، سواء كان ذلك بإلقاء المسؤولية على شخص آخر أو بتغيير أو تعديل المواقف التي يتخذها تجاه الموضوع أو المخاطب، كما يمكن للمتكلم أن يستخدم أساليب مثل السخرية الخفية لإيهام المخاطب بأنه يتحمل المسؤولية بينما هو في الواقع لا يفعل ذلك، لذا يعد فهم الأشكال الذاتية التي يفرضها الخطاب جزءًا أساسيًا من تحليل الخطاب.
- **الخطاب محكوم بمعايير:** يعني أنه يخضع لمجموعة من المعايير الاجتماعية العامة التي تحكم أي سلوك اجتماعي، بالإضافة إلى ذلك، فإن كل نوع من أنواع الخطاب يتبع معايير خاصة به تتناسب مع السياق الذي يتم فيه. على سبيل المثال، عندما يسأل المتكلم سؤالًا، فهذا يعني أنه يجهل الجواب، ويتوقع أن يكون الجواب ذا فائدة له، كما يعتقد أن المخاطب قادر على توفير هذا الجواب، وبالتالي، لا يمكن لأي فعل لغوي أن يتم دون أن يكون له مبرر أو سبب يبرر تقديمه، ويعزز هذا الانخراط في أنواع الخطاب المختلفة، مما يضفي الشرعية على ما يُقال ويجعله جزءًا لا يتجزأ من الممارسة اللغوية.
- **الخطاب واقع بين خطابات:** الخطاب لا يُفهم بمعزل عن غيره من الخطابات؛ بل معناه يتشكل ويتحدد من خلال علاقته المتبادلة مع أنواع أخرى من الخطابات، لفهم أي خطاب بشكل كامل، لا بد من ربطه بأنواع أخرى قد تتداخل معه بطرق مختلفة، مثل التعليق عليه أو محاكاته أو الاستشهاد به، على سبيل المثال، في النصوص الفلسفية، يُستخدم الاستشهاد بطريقة تختلف تمامًا عن تلك التي تُستخدم في الإعلانات التجارية، وعندما يتم تصنيف خطاب ما ضمن نوع معين، مثل المحاضرة أو نشرة الأخبار

التلفزيونية، فإن ذلك يستلزم ربطه بأنواع أخرى من الخطابات التي تتقاطع معه في السياق، مما يساهم في تشكيل معناه وتحديده.

4. خاتمة:

تبيّن من خلال هذه الدّراسة أن مفهوم الخطاب لا يندرج ضمن التصورات المستقرة أو الموحدة دلاليا، بل يظلّ من المفاهيم الإشكالية التي تتوزّع بين الحقول المعرفية وتعاد صياغتها وفق صياغاتها النظرية والوظيفية، وقد كشفت المقارنة بين الفكر العربي والمقاربات التداولية الغربية عن جملة من النتائج، أهمها:

- أن الفكر العربي لم يكن خاليا من تمثلات مبكرة لمفهوم الخطاب، حيث وُظّف ضمن مجالات البلاغة والبيان، غير أنه لم يرتق إلى مفهوم لساني مستقل بذاته، بل ظلّ مرتبطا بمقولات النص والمعنى والإقناع، وبنى على أسس معيارية غالبا.
- أنّ المقاربات التداولية الغربية، قد أسست لمفهوم وظيفي للخطاب يقوم على استعمال اللغة في السياق، ويجمع بين البعد التواصلي والتداولي مما أتاح توسيع دلالته لتشمل الأفعال الكلامية وأدوار المتكلم، وأن تعدد تعريفات الخطاب في الدراسات الغربية لا يدل على فوضى مفاهيمية، بل يعكس طبيعته المركبة، وهو ما يجعله مفتوحا قابلا للتحول وإعادة التأسيس النظري.
- يمثل الخطاب اليوم في الدراسات اللسانية المعاصرة أفقا منهجيا يتجاوز دراسة الجملة والنص، يشمل كل أشكال القول المؤثر في الواقع، بما في ذلك الخطابات السياسية والدينية والإعلامية وغيرها، بوصفه أداة لفهم الواقع في الفضاء التداولي.
- إن الحاجة اليوم باتت ماسة إلى إعادة بناء مفهوم الخطاب ضمن مشروع معرفي عربي معاصر، ينطلق من مراجعة المفاهيم التراثية بلغة تداولية، ويستثمر الأدوات التحليلية الحديثة في إطار تكاملي لا تقابلي، بما يضمن تجاوز الاستنساخ النظري إلى إنتاج مفاهيم نابعة من خصوصية الخطاب العربي.

5. قائمة المراجع:

1. إبراهيم محمود خليل. (2009م). *في اللسانيات ونحو النص*. الأردن: دار المسيرة.
2. ابن منظور. (د.ت). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
3. أبو البقاء الكفوي. (1998). *الكليات*. لبنان: مؤسسة الرسالة.
4. أحمد المتوكل. (2001). *قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بنية الخطاب من الجملة إلى النص*. الرباط: دار الأمان.
5. أحمد رضا. (1958). معجم *متن اللغة*. بيروت: مكتبة الحياة.
6. أحمد مؤمن. (2005م). *اللسانيات النشأة والتطور*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية.
7. أحمد واضح. (2012). الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري. وهران، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون.
8. التهانوي. (1996). *كشاف اصطلحات الفنون*. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
9. الزمخشري. (1998). *أساس البلاغة*. لبنان: دار الكتب العلمية.
10. باتريك شارودو ودومنيك منغنو. (2008). معجم *تحليل الخطاب*. تونس: دار سيناترا.
11. بغورة الزواوي. (2005م). *الفلسفة واللغة*. لبنان: دار الطليعة.
12. ج.ب.براون و ج.يول. (1997م). *تحليل الخطاب*. المملكة العربية السعودية: النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود.
13. جاك موشلر وآن ريبول. (2010م). *القاموس الموسوعي للتداولية*. تونس: سيناترا.
14. جيوفيري ليتش. (2013م). *مبادئ التداولية*. المغرب: أفريقيا الشرق.
15. حبيب بن مالك. (2021م). مقياس تحليل الخطاب. تلمسان، جامعة أبو بكر بلقايد كلية الآداب واللغات.
16. خديجة إيكر. (2012م). *المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم*. الكويت: دار روافد.
17. رابح بوحوش. (2009م). *اللسانيات وتحليل النصوص*. الأردن: عالم الكتب الحديث.
18. ربيعة العربي. (2010م). الحد بين النص والخطاب. *مجلة علامات*، 33-34.
19. سارة ميلز. (2016). *الخطاب*. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
20. سعيد يقطين. (1997م). *تحليل الخطاب الروائي*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
21. سعيد يقطين. (2001م). *انفتاح النص الروائي النص والسياق*. لبنان: المركز الثقافي العربي.
22. سعيد يقطين. (2005). *من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي*. لبنان: المركز الثقافي العربي.

23. طه عبد الرحمن. (1998). *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
24. عبد الواسع الحميري. (2009). *ما الخطاب وكيف نحلله*. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
25. عبد الرحمن الحاج صالح. (د.ت). *الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية*.
26. عبد الهادي بن ظافر الشهري. (2004). *استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية*. لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
27. فان دايك. (د.ت). *النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي*. لبنان: المركز الثقافي العربي.
28. محمد حولة. (2014م). تحليل الخطاب من المدرسة البنوية إلى المنهج التداولي. *مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ*، 86،87.
29. محمد طروس. (2005م). *النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية وامنطقية واللسانية*. الدار البيضاء: دار الثقافة.
30. محمد فؤاد عبد الباقي. (1364). *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*. القاهرة: دار الحديث.
31. محمد محمد يونس علي. (2024). من النص إلى الخطاب كيف نقول مالا نقول؟ *جدلية النص والخطاب*. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
32. مسعود صحراوي. (2004م). الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي. باتنة، جامعة باتنة.
33. منير وليد. (2003). *النص القرآني من الجملة إلى العالم*. القاهرة: المعهد العالي للفكر الإسلامي.
34. نعمان بوقرة. (2009م). *المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب*. الأردن: جدارا للكتاب العالمي.
35. هدية جيلي. (2017م). استراتيجيات الخطاب القرآني سورة آل عمران نموذجا مقاربة لغوية تداولية . كلية الآداب واللغات قسم اللغةوالأدب العربي.
36. هواري بلقندوز. (2009م). التداوليات النصية مقاربة في فهم الخطاب وتأويله. وهران، جامعة وهران كلية الآداب واللغات والفنون قسم اللغة العربية وآدابها.